www.assafir.com جريدة السفير ©2009

محلّيات

تاريخ العدد 14/09/2009 **العدد** 11395

يمكن لأرتوزيا أن تنتظر

جهاد بزي

يستطيع المخيم أن يكون من شقين،
أو أن نبحث عن قطعة أرض بديلة للمخيم..
لكن لا نستطيع أن نجد ارتوزيا في مكان آخر.
الجنرال ميشال عون
(17 حزيران 2009)

في مخيم نهر البارد مدينتان.
المدينة الأولى بقايا أثرية اكتشفت تحت أنقاض المخيم القديم الذي سُحق بالكامل. هذه البقايا اسمها أرتوزيا. يستميت العونيون في الدفاع عنها، وقد رفعوا طعناً إلى مجلس الشورى جمّد إثره طمر آثار المدينة المكتشفة، ريثما يتخذ قراره. ولجنة الدراسات العونية لا تنفك تصدر بيانات بلغة أكاديمية رصينة تعلّل فيها أسباب دفاعها عن المدينة وتدفع عن نفسها تهمة العنصرية وتشدد على أنها ضد التوطين.
المدينة الثانية هي مدينة «البركسات». هي النقيض التام لكل الآثارات على وجه الأرض. هي صناديق «عصرية» من حديد وبلاستيك وإسفنج، وغيرها من المواد المثيرة لغثيان عالم الآثار إذا سقط مكبره عليها. وعلى العكس من القلاع والاعمدة والمدرجات الخالدة خلود الآلهة، فإن مدينة البركسات بلا أعمدة ولا فخامة ولا تاريخ، وهندستها رتيبة ومقيتة. وهي عرضة للتلف أسرع بمليون مرة من مدينة أرتوزيا. عناصر الطبيعة الجميلة، الشمس والمياه والهواء، هي أوبئة دائمة تفتك بالمدينة الهشة المقامة على عجل لإيواء النازحين في بلاد لجوئهم.
هناك فارق أساسي بين المدينتين: البركسات مأهولة. ارتوزيا غير مأهولة. وأن نقول إنها مأهولة، فلأننا قررنا، كلبنانيين، مواجهة الإرهاب بطريقة فريدة من نوعها، هللت لها قوى سياسية شرسة في «حبها» للفلسطينيين، وتغاضت عنها قوى أخرى كانت قد نادت يوماً بأن المخيم خط أحمر. تلك الحرب ستبقى، بأي حال، «إنجازاً ناصعاً» في تاريخنا اللبناني، وإن طُمرت خطاياها بكل ما فيها كرمى لعناوين كبيرة وفارغة.
وأن نقول إن البركسات مأهولة منذ نحو سنتين. أن يضطر لاجئون، قصمنا ظهورهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، إلى حياة منسية كهذه التي يعيشونها في علب الصفيح المكتظة تتساقط الصراصير من أسقفها الاسفنج المبقورة بسبب الحرارة والمياه، أو تنبت الجرذان من أرضها، أو تصير مستنقعات وحول عند كل مطر. أن يضطر لاجئون سحقنا حيواتهم إلى يوميات طويلة في هذه المجمعات الحديدية الأقرب إلى مجمعات عزل المصابين بأمراض معدية قاتلة. أن تضطر عيون اطفالهم إلى العتمة ليل نهار وانفاسهم إلى الرطوبة وآفاقهم إلى ممرات ضيقة خانقة. وأن يضطر الفلسطيني إلى هذه العقوبة المستمرة عليه لذنب ليس ذنبه، فإنه عيب هائل يتدلى من عنق لبنان جرساً فاضحاً يرن كيفما هزّ هذا البلد عنقه.
أما أن يقال للفلسطيني إن أرتوزيا أهم من الأرض التي ولد عليها، وإن عليه أن يبحث عن مكان آخر يقيم عليه مخيمه، فهذا يفوق خيال الكوابيس التي يراها.
ثمة افتقاد تام لحس إنساني بسيط: المكان، مهما كان مؤقتاً، له قيمة رمزية ترتبط بقيمة المجتمع الذي يقيم فيه منذ ستين سنة. هم لاجئون لكنهم ليسوا بضاعة يمكن وضعها في أي مكان، بانتظار شحنها إلى فلسطين. المثل قاس، لكنه الاقرب إلى المنطق الذي تتعاطى به الغالبية اللبنانية العظمى مع الشأن الفلسطيني. هناك سخرية مرّة في أن يضطر الواحد إلى الشرح بأن المخيم الفلسطيني ليس نزهة كشفية بين أحراج الصنوبر، تقام وتفك ثم تنتقل إلى مكان جديد. المخيمات الفلسطينية هي مثل مدننا وقرانا وأحيائنا. مثل حي السلم والحمرا والاشرفية والرابية. قد نكرهها وقد نحبها، لكن فيها شكّلنا ذكرياتنا وتفاصيلنا وأحزاننا وافراحنا. وإذا كان الفلسطيني يعيش في مؤقت مفتوح، فهذا لا يعني أن حقائبه موضبة طوال الوقت. هذا لا يعني أنه بلا ذاكرة. من السخرية المرّة تذكير لجنة الدراسات وغيرها، بأن الفلسطينيين مثلنا، نحن اللبنانيين أحفاد الأرتوزيين العظام. وكما لا يحق لأحد أن ينقّلنا كيفما شاء، لا يحق لنا أن ننقلهم كيفما شئنا. معادلة بسيطة.
ثم..
إذا كانت إعادة الإعمار بهذا الحجم من التعقيد، وإذا كان هناك خلاف حتى على اسم المخيم الجديد من البارد حدا بالجيش اللبناني إلى أن «يأمل» من الإعلام تسميته بالبقعة المحيطة بالمخيم، فأين سيجد الفلسطينيون النازحون مخيماً آخر؟ فلتنكب لجنة الدراسات العونية على درس فكرة الجنرال وجعلها حجر أساس لدراسة متكاملة تلحظ موقع المخيم الجديد على أرض لبنان، ومساحته وكيفية استئجاره أو تملكه للبدء بإعادة الإعمار بسرعة كي ينتقل الفلسطينيون إليه. وربما على اللجنة زيارة البركسات والنزول في غرفها لأيام تستفتي خلالها رأي المنكوبين فرداً فرداً بموقع جديد للمخيم. كما ينبغي عليها لاحقاً أخذ موافقة جيرانهم الجدد من اللبنانيين. هذا جهد يمكن للجنة الدراسات أن تقوم به بالطبع، لما يعرف عنها من عمق وقدرة. غير أن الفلسطينيين ليسوا قضية اللجنة. قضيتها أرتوزيا.
المصائب تأتي دفعة واحدة. نزلت على المخيم فدمرته، ثم صعدت من أسفله، فزادت على معوقات إعماره معوّقاً جديداً. الأولوية الآن هي في طمر مدينة البركسات، وهذه لن تطمر إلا إذا طمرت آثار ارتوزيا، بغض النظر عن أي أهمية لها. من أقل حقوق فلسطيني مخيم نهر البارد على هذا البلد هو ألا يجعلهم ينتظرون أكثر. بقاء الفلسطينيين على حالهم هناك جريمة بحق الانسانية واللبنانيين، وليس طمر ارتوزيا هو «الجريمة بحق الإنسانية والشعب اللبناني» كما قالت لجنة الدراسات.
أما أرتوزيا العونية فيمكن لها أن تنتظر. يكفيها فخراً أنها أثبتت عمق تجذرها في الأرض اللبنانية وعنادها وتحديها للزمن. هي خالدة وشامخة شموخ الجبال والأرز. ولا شك بأنها ستطلع من بين الركام ثانية، يوم يغادر الفلسطينيون هذه البلاد التي لا تفعل منذ عقود إلا معاقبتهم على وجودهم القسري فيها.
جهاد بزي